تاريخ الطب عند العرب

ايها السادة :

لا يسعني ان افوه ببنت شفة قبل ان احيي بكل اجلال وتعظيم صاحب ذاك الروح الزكي الذي شيد هذا المعهد العلمي وألثم بشفتي معرفة الجميل تلك الايادي البيضاء التي أحيت دارس آثاره وفتحت مغلق أبوابه . وأثني الثناء الطيب على حضرات رئيسه وأعضائه الاساتذة الأجلاء . واشكر حضور هذا المجلس الكرام لما يبدونه من الاهتمام بترويج بضاعة العلم وإحياء آثار السلف المتجلي بتشريفكم ايها السادة لسماع محاضرة هذا العاجز . في ساعة تذوق فيها النفس للرياضة والنزهة مما يستوجب لكم شكري ويستمطر عليكم وابل بركات تلك الأرواح العظيمة التي ترفرف الآن في بهو هذا المحفل منتعشة لذكر أسمائها وسرد عظيم أعمالها .

فعليكِ منا سلام الله ايتها الأرواح الطاهرة أرواح سلفنا الصالح أرواح تلك الشموس الساطعة التي أضاءت بكواكب معارفها ظلمات القرون المتوسطة ، وهدت بما تركته من أعمالها خلال القرون الأخيرة ، وخلدت بعظيم جهادها اسم العرب محفوفاً بالإجلال والتعظيم ، رغم مابلي من لباسهم وما شوهت الايام من ناضر محياهم .

غربت تلك الشموس وبات العالم من بعدها رجلين شأن حال دعاة الإصلاح في كل عصر وقطر . رجل مفتون وآخر محزون ، رجل مادح وآخر قادح . فريق ذهب الى ان العرب هم الذين ابتدعوا الطب وأوجدوه ، وابتكروا جميع فروعه وصنفوه ، وفريق ذهب الى ان العرب أخذوا الطب اليوناني فقلبوه رأساً على عقب فكان لهم مشابة القلم للكاتب او الهيكل العظمي للجسم . وذهب آخرون الى عكس ذلك من ان العرب لم يكونوا سوى واسطة نقل صماء او حرف جر بلا معنى ما بين الأطباء الأقدمين والمتأخرين نقلوا على ظهورهم معارف الأقدمين ولم ترمقها عيونهم ولا تلمسها أناملهم . فكان نصيبهم من الفضل نصيب الناقل لا نصيب الواضع عدا انه لم ينبغ

(١) محاضرة ألقاها الاستاذ الدكتور أسعد الحكيم من اعضاء المجمع العلمي العربي في ردهة المجمع في دمشق يوم الجمعة في ٣٠ آذار سنة ١٩٢٣ م .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيهم طبيب ولا حكيم . وزاد قوم على ذلك من بشاعة التحامل فقالوا ان العرب قد شوّهوا وجه الطب القديم بما أدخلوه عليه من الخرافات والتدجيل مما عبث به وبالانسانية أعصاراً وأدهاراً .

فمن الحق يا ترى ؟ وما ذا يكون القول الفصل ما بين هذه الأقوال المتضاربة والأحكام المتناقضة ؟ هذا ما توخيت البحث فيه ، وانا على يقين تام بأني لا أفي هذا الموضوع حقه ولكن وشل خير من سراب ووميض برق خير من ظلام وحركة خفيفة خير من جمود مستمر .

في كل من تلك الأقوال المتضاربة إفراط وتفريط وخطأ وصواب . اما الحقيقة فهي مترددة ما بين طرفي النقيض .

* * *

لم يخلق العرب الطب ولم يبتدعوه كما انهم لم يكونوا واسطة نقل صماء ما بين الأقدمين والمتأخرين .

ليس الطب من حيث مبادؤه من صنع أمة من الأمم تمن على العالم بايجاده . بل هو حركة من حركات الانسان الاول سيق اليها بدافع فطري ، هو حس المحافظة على الحياة وتجنب الآلام . فكان يضغط على جراحه ليقطع النزف او يبطل الحس ، ويجتنب الحركة تسكيناً للألم ، ويلتمس الحرارة اثناء البرودة ، ويتطلب البرودة خلال الحمى من الافعال الغريزية التي نشاهدها عند جميع الحيوانات . ثم اخذ هذا الحس الطبيعي يتحول بالتدريج الى إدراك ثم الى معرفة ثم الى علم وفقاً لسنة الارتقاء .

واول من عُني من الامم بجمع ما اهتدى اليه الانسان بسائق الطبيعة اوالتصادف من الوسائط التي من شأنها دفع الأمراض ومحافظة الصحة هم الكلدان . وقد حملهم اهتمامهم بهذا الامر الى وضع مرضاهم على معابر الطرق حتى اذا مرّ بهم احد أصيب بما هم مصابون به ينبئهم بصورة شفائه ، فيكتبون ذلك على ألواح يعلقونها على هياكلهم فكانوا بالنسبة الى الطب كالمحتضن بالنسبة الى الطفل كفلوه رضيعاً ، فلم يلبث عندهم حتى اختطفه من بين ايديهم اليونان فأكرموا مثواه وأحسنوا حضانته . فتبناه أبقراط وكفله سقراط وهذبه جالينوس ، فنما صحيح الجسم قوي البنية ، تكاملت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالتشريح أعضاؤه ، وتهذبت بفلسفة الحياة أخلاقه ، وصينت بحجاب علم الامراض صحته ، وأصلحت بفن التداوي البسيط مفاسده . فغدا يافعاً يسحر الالباب بفرط جماله ، وعلماً جليلاً تشد رحال الحكماء من عامة الاقطار الى آثينة لاقتباس جواهر أحكامه . غير انه لم يطل العهد حتى أخنى الدهر على اليونان بكلكله ، وقضى على مدنية الرومان بجحفله ، فأظلمت تلك الشموس بعد النور ، وتعكرت تلك المياه بعد الصفاء ، وذلت تلك النفوس الأبية ، واستعبدت تلك القلوب الحرة . فأجدب روض الطب بعد الخصب ، وكسدت سوقه بعد الرواج ، فشرد حقيراً يتطلب ملجأ يلتجيء اليه وأباً باراً يعطف عليه . فقذفت به المحن طوراً الى بيزنطية وآخر الى رومية وحيناً الى الاسكندرية واخيراً الى جنديسابور . وكانت حاله في كل من تلك العواصم بين صعود وهبوط ، وإقبال وإدبار ، وخصب وجدب ، الى ان عمت الفوضى وعظم الخلاف ، فاشتغل عنه الناس بالفتن الدينية والاختلافات المذهبية فبات وليس لديه ما يسد به رمقه ، وليس عليه ما يستر به جسده . تغيرت ملامحه وتشوهت محاسنه ونفر منه طلابه ، وتوقفت عن النمو اعضاؤه . يافعاً حرمته مظالم الاضطهاد ان يبلغ رشده وغصناً يانعاً منعته عوامل الاهمال ان يؤتي أكله . وبينا هو يلفظ رمقه الأخير ادركه العرب بتريافهم فانتعش بعد الاحتناق ، واستأنس بعد اليأس ففتحوا له رحب صدورهم ، وأوردوه عذب المناهل من عقولهم ، ثم كسوه بما عثروا عليه من القلانس الهندية ، والتيجان الفارسية ، وحلوه بما ابتكرته عقولهم من بنات الافكار ، وما ابتدعته من الاكتشافات والاختراعات ، فطاب له رغد العيش وصفاء الهواء ، فشب فيما بينهم عربي المنطق فصيح اللسان ، لغته لغتهم ، وكسوته لباسهم ، وزينته حليهم ، فليت شعري كيف لا يعترف لهم بالجميل وهو ابن احسانهم وهلا يكون مديناً لهم بالحياة ، وهو ربيب سعيهم واجتهادهم وهلا تقر اوربا باجمعها بفضلهم ، وقد زفوه اليها فتياً يتفاطر ماء الحياة من وجهه ، تهذبت بعشرته اخلاقها وتناسل منه طبها وجراحتها .

قال الدكتور غستاف لبون في حضارة العرب (ص ٦١٤) مؤيداً ذلك : ليس كما يقال بواسطة الصليبيين بل بواسطة الاندلس وصقلية وايطالية (و يعني بايطالية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مدرسة سالرنة التي كانت تدرس فيها المصنفات العربية) دخل العلم الى اوربا فأسس في سنة ١١٣٠ في طليطلة تحت ادارة رئيس الاساقفة ريموند مكتب ترجمة نقل الى اللاتينية أشهر مؤلفي العرب وكان نجاح هذه التراجم عظيماً دخل بها الغرب في عالم جديد . وظل السعي متواصلاً في القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر . ولم ينقل الى اللاتينية مؤلفو العرب كالرازي وابي القاسم وابن سينا وابن رشد وغيرهم بل نقل ايضاً المؤلفون اليونانيون كجالينوس وأبقراط وغيرهم الذين ترجم العرب مصنفاتهم الى لغتهم . وبفضل تلك التراجم حفظت الى زمننا مصنفات مؤلفين قدماء فقدت كتبهم الاصلية . الى ان قال : فالى الغرب خاصة لا الى رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى وجود اللغة اليونانية يعود الفضل بمعرفة التاريخ القديم ، والعالم باجمعه مدين لهم بعرفان الجميل لانقاذهم هذا الكنز الثمين . وقد كتب (م لبيري) « امحوا العرب من التاريخ فنتأخر نهضة الآداب في اوربا قروناً متعددة » وقد أيد زميلنا الدكتور يوسف حريز هذه الحقيقة في كتابه الذي وضعه وأسماه حظ الطب العربي في نشوء الطب الفرنسي . فانه بعدما أظهر ما كانت عليه اوربا في القرن التاسع والعاشر للميلاد من الجهل والهمجية على خلاف الممالك العربية التي كانت ترفل في ذلك العهد بابهى حلل الحضارة والمدنية الرفيعة قال : قدم في القرن العاشر للميلاد جربر دي اوريلياك الى الاندلس فأخذ العلوم عن العرب ثم عاد فنشرها في اوربا ولاسيما في فرنسا بواسطة مدرسة ريمس وشارتر . وقدم الى ايطاليا في القرن الحادي عشر قسطنطين الافريقي وكان تلقن العلوم العربية في خراسان والشام ومصر والقيروان فنشر فيها العلوم العربية بواسطة مدرسة سالرنة . وقدم الى طليطلة في القرن الثاني عشر جرار دي كريمونا فتعلم العربية فيها بقصد الترجمة فنقل الى اللاتينية ستة وسبعين مؤلفاً لأشهر علماء العرب فكان الصلة بين العرب واوربا .

* * *

لا ننكر بان بعض الفروع الطبية كالتشريح وعلم الحياة والقيالة لم تنم عند العرب كبقية الفروع الاخرى وذلك لامتناعهم بدافع اعتقادات او عادات في ذلك الحين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من تشريح الموتى والنظر الى النساء . اما بقية الفروع الطبية كالامراض والجراحة والمداواة والكيمياء والمفردات الطبيـة والصيدلة فقد كان لهم فيها المام خاص ونبوغ زائد . فقد وصفوا كثيراً من الامراض التي كانت مجهولة كالحصبة والجدري . وابتدعوا كثيراً من العمليات الجراحية الخطيرة كقدح العين وتفتيت الحصاة ، وقلموا فن المداواة القديم رأساً على عقب بما أدخلوه عليـه من النظريات والمفردات الطبية الكثيرة والادوية المركبـة ، واستعمال الماء البارد . واما الصيدلة فهي بنت ابتكارهم وفيها من الاسماء العربية التي تنطق بها حتى اليوم مايشهد بعربيتها ابدالدهر .

اما ماينسبه الفريق المتحامل على العرب من انهم أدخلوا على الطب بعض الخرافات كالطلاسم والرقية وغير ذلك فهـذا مما لم يختص به العرب ، ومثل هذه الاعتقادات الوهمية كانت سائدة في كل عصر وقطر عند الأقدمين والمتأخرين حتى في أيامنا هذه ، وعند جميع الشعوب على درجات متفاوتة . على ان مثل هذه الاعمال الوهمية قد لا تخلو من فائدة في معالجة بعض الامراض العقلية ، وهذا ماساعد على انتشارها والاعتقاد بها . اما ما ينكره الفن الحديث عليها فذلك ان الدجالين ممن لا معرفة لهم ولا ميزة في أخلاقهم انشأوا يستعملونها و يجعلونها أحبولة للارتزاق يستخدمونها في غير ما وضعت له ، فيضرون بها كثيرين ولا ينتفع منها بالعرض الا القليل النادر .

هذه نظرة عامة في حياة الطب الإجمالية في أدواره المختلفة . اما الطب العربي بصورة خاصة فهو لا بد لنـا للاحاطة به من شد رحال الفكر الى أوائل القرون الوسطى لنشاهد الطبيب العربي في عصر جاهليته ما بين اليمن والحجاز يحمي شفار الحديد بالنار ليبتر بهـا عضواً فاسداً (لاغاني ١٣ — ١٣٧) و يتلو العزائم الوهمية ليشفي باسرارها مرضاً مستعصياً . ثم نرافقه الى دمشق ثم الى بغداد ومنهـا الى مصر والاندلس حيث نراه استاذاً في الطب يدير المستشفيات العظيمة ، و يجري العمليات الجراحية الكبرى ، يؤلف الكتب و يدون المشاهدات ، يتقاطر اليـه طلاب الحكمة من كل حدب وصوب .

* * *

كان شأن الطب عند العرب في عصر جاهليتهم شأنه عند جميع الامم في حال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بداوتهم مقصوراً على تجارب بسيطة نافعة وصلت اليهم عن طريق التوارث ، وعلى اعتقادات وهمية انتقلت اليهم بعامل التواتر والتعارف ، وكان يقوم بمهام هذه المهنة الكهان والعرافون فيعالجون المرضى بالرقية والسحر والعزائم والنذور وغير ذلك . ويستعملون أحياناً بعض العقاقير البسيطة والاشربة المركبة من العسل . وكان لهم إلمام خاص باستعمال الكي بالنار في كثير من الامراض . واشتهر عندهم كثير من المتطببين الذين لم يصل الينا سوى اسمائهم لذهابها مذهب المثل ، كلقمان الحكيم وابن حذيم وغيرهما . اما في نهضتهم الاخيرة قبل الاسلام فقد اشتهر عندهم أطباء حقيقيون أفرّ لهم أساتذة هذا الفن من الأعاجم المعاصرين لهم بالفضل والحذاقة . منهم الحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب في عصره . اصله من ثقيف من اهل الطائف رحل الى ارض فارس وتعلم الطب فيها ، وأجاد في هذه الصناعة وطب في أهل فارس وشهدوا له بالفضل وحصل له بذلك مال عظيم . ثم عاد الى الطائف وكان معاصراً للنبي صلى الله عليه وسلم وكان النبي يوصي باستيصافه .

واشتهر من بعده ولده النضر بن الحارث . وكان فيلسوفاً عالماً وطبيباً ماهراً ومنهم ابن ابي رومية التميمي وكان جراحاً مزاولاً لاعمال اليد (طبقات الاطباء ج ١ من ١٠٩ — ١١٦) .

على ان الشريعة الاسلامية الغراء وفي صدرها القرآن جاءت ملأى اذ ذاك بالتعاليم الصحية القويمة الأساسية التي لا شأن لنا بسردها اذ ليس للعرب في استنباطها ناقة ولا جمل .

وما زال الطب عند العرب علماً سماعياً يتناقلونه بالافواه ، الى ان فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية وكان فيها للطب مدرسة تدرس فيها كتب جالينوس الاثنا عشر ومن أساتذتها عبد الملك بن ابجر واهرن القس ولهذا كناش بالسريانية يدعى القوانين نقله ماسرجو به البصري الى العربية في بدء القرن الثامن للميلاد وهو ثلاثون مقالة . وهذا اول كتاب طبي ترجم الى العربية وذلك ايام عمر بن عبدالعزيز (طبقات الاطباء ١ — ١٠٩) .

هنالك في الاسكندرية وقف العرب لأول مرة على أطلال المدنية اليونانية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

القديمة فأعظموا أمرها ، وعثروا على البقية الباقية من علوم الأقدمين فتشوقوا لدرسها واول من دعا العلماء الى ترجمة الكتب اليونانية الى العربية خالد بن يزيد الأموي حفيد معاوية الاكبر وكان ولعاً بعلم الكيمياء فاستقدم جماعة من الاسكندرية منهم مريانوس الراهب فعلمه صناعة الكيمياء ثم نقلها له اصطفان القديم (الفهرست ٢٤٤) وهذا اول من نقل في الاسلام من لغة الى لغة ، و بالنظر لاندماج جل الأطباء الأقدمين الطب بالكيمياء نقل بهذه المناسبة كثير من معلوماتهم الطبية الى العربية .

* * *

واجل من اشتهر من العرب بالعلوم الطبيعية وضرب فيها بسهم وافر ولا سيما في الكيمياء جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي المعروف بالصوفي من رجال القرن الثاني للهجرة وقد اختلف الناس في امره فقال جماعة من المتأخرين انه اخذ الكيمياء عن جعفر الصادق رضي الله عنه وفي ذلك خطأ كبير لانه لم يعثر في كتب التراجم المعتمدة كالفهرست وطبقات الاطباء وكشف الظنون وغيرها من امهات الكتب الموثوق بها على ما يدل على ان جعفر الصادق كان عالماً بالكيمياء او انه اشتغل بهذه الصناعة بل جل ما ذكره ابن النديم في هذا الصدد ان الشيعة قالت ان جابراً من كبارهم وزعموا انه كان صاحب جعفر الصادق كما زعم غيرهم انه كان من جملة البرامكة ومنقطعاً اليهم ومتحققاً بجعفر بن يحيى البرمكي وان من زعم هذا قال انه عنى بسيده جعفر هو البرمكي وقالت الشيعة انما عنى جعفر الصادق (الفهرست ص ٣٥١) ومن كلا القولين لا يفهم ان جابراً درس الكيمياء على احد الجعفرين او ان احدهما كان ملماً بهذا الفن وقد يقرب من الصواب ما جاء في كشف الظنون (ص ٣٤٤) ان جابراً اخذ الكيمياء عن خالد بن يزيد الأموي الذي سبق ذكره وقد وضع أسس هذا الفن وقطع فيه شوطاً بعيداً حتى أطلق اسمه عليه . ولقبه الفرنج بإضع الكيمياء . وله فيها اكتشافات خطيرة ومؤلفات جليلة يربو عددها على السبعين . فقد اكتشف التقطير والتصعيد وروح الخمر والحوامض القوية وطرق إذابة الذهب وترشيح السوائل وغير ذلك من الاعمال والمركبات الكيماوية الاساسية ، واخترع آلات وأجهزة كيماوية كثيرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا ولم يكن للعرب في عهد الدولة الأموية من نبوغ في الطب اذ حل من اشتهر اذ ذاك من الأطباء لم يكونوا عرباً . وأشهر هؤلاء في ذلك الحين شمعون وثياذوق اللذان برعا بحفظ الصحة . وابو الحكم وابنه الحكم الدمشقي وعيسى بن الحكم الذين اشتهروا بالطب وابن اثال طبيب معاوية وكان خبيراً بالأدوية السامة القاتلة وكان معاوية يقربه لذلك (طبقات الاطباء ١ : ١١٧) .

على ان النبوغ العربي لم يقتبس من الاسكندرية ولما يشتمل في عهد الدولة الاموية ، اذ الفضل بحمل العلوم الدخيلة للعرب ونقلها الى لغتهم يعود جله للعجم علماء جنديسابور ، والفخر العظيم كل الفخر يجاب اولئك العلماء وتعريبهم ونقل علوم الاقدمين الى اللغة العربية وتهيئة الافكار لاقتباسها واستثمارها ونشر لواء الحضارة العربية في جميع الأقطار يرجع للخلفاء العباسيين الكرام .

* * *

وقبل البحث في النهضة العربية لا بد لنا من الاشارة الى الاسباب التي دعت الى انتقال العلوم القديمة من الغرب الى الشرق وجلها ناشيء عن الحروب الدينية والاختلافات المذهبية . فقد تلبدت في سماء الاسكندرية في اوائل القرن الثامن للميلاد ظلمات الأضاليل والاختلافات المذهبية فخسف منهل مدرستها الطبية القديمة فنقلها عمر بن عبد العزيز عام ٧٢١ الى انطاكية ومنها الى حران . واشتعلت نيران الفتن المذهبية في القرن السادس في آثينة فخرج منها الافلاطونيون الذين طردهم يوستينيانوس قيصر الروم فارين من وجه الظلم والاضطهاد ووجهتهم الشرق ملجأ الخائفين ومأمن العلماء المضطهدين في ذلك الحين ، فأكرم كسرى انوشروان العادل وفادتهم فتوطنوا فارس ونقلوا له كتب الفلسفة والطب الى الفارسية (الفهرست ٢٤٢) وتداعت أركان مدرسة الرها فنزح علماؤها الى العجم يحملون معهم زبدة علوم اليونان وخيرة كتب الأقدمين . وعلى الجملة انسدل ليل الجهل في أوائل القرن الثامن في اوربا فغربت شمس العلم منها منتقلة الى آسيا فلمعت حيناً في خراسان عند القسطورين ثم سطعت في بغداد مثوى الحضارة العربية حيث تكاثفت جميع أنوار العلم ومنها انبثقت على العالم أجمع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واول المدن الشرقية التي فتحت أبوابها لعلوم اليونان الأقدمين ومعارفهم مدينة جنديسابور في خراسان ، وكان فيها في أوائل القرن الثامن مدرسة طب حافلة وبيمارستان لمداواة المرضى أنشأه كسرى انو شروان لا يقبل فيه الاطباء الا بعد الاختبار . وقد اشتهر بحسن الطب فيها أسرات كثيرة منهم آل بُختيشوع وآل ماسويه وآل الظيفوري وآل ماسرجويه كان لهم في نقل الطب للعرب أيادٍ بيضاء ومآثر حميدة .

وكان السبب في هجرة هؤلاء الأطباء الى دار السلام ان الخليفة المنصور بعدما بنى مدينة بغداد عام (٧٦٢) اعتراه مرض أفسد معدته وقطع شهوته ، وكان كلما عالجه الأطباء ازداد مرضه فتقدم الى الربيع بان يجمع الأطباء لمشاورتهم فجمعهم فقال له المنصور : هل تعرفون من الاطباء في سائر المدن طبيباً ماهراً ؟ فقالوا ليس في وقتنا هذا احد يشبه جرجيس رأس اطباء جنديسابور فأنفذ المنصور في الوقت من يحضره . وكان جرجيس هذا مديراً لدار الطب ورئيساً للبيمارستان فخرج من جنديسابور بعد ان أوصى ابنه بختيشوع بالمستشفى وامور واستصحب معه اثنين من تلاميذه ابراهيم وعيسى بن شهلا وقدم الى بغداد فعالج المنصور بتدبير حسن رجع به الى مزاجه الاول فقربه الخليفة وأكرم مثواه وأفاض عليه من وابل كرمه ما أغناه (طبقات الأطباء ١ : ١٢٤) .

ومن ذاك الحين شرع اساتذة الطب في جنديسابور يتقاطرون الواحد تلو الآخر الى دار السلام التي لم تلبث ان ورثت علوم تلك المدينة الزاهرة وجل علمائها فأصبحت عاصمة العلم الوحيدة في العالم . من ذاك العهد اخذ يتقاطر الى بغداد حملة العلم والمترجمون من جميع انحاء العراق والشام وفارس وفيهم النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس والروم والبراهمة والعرب متآخين متعاضدين يترجمون من اللغات كافة . من ذاك الدور بدأت تشيد في بغداد المستشفيات العامة والمجامع العلمية ودور الحكمة والصيدليات وقاعات الترجمة ومجالس الأدب والمناظرة مما يدعوه التاريخ النهضة العباسية او القرن الذهبي العربي .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا يسعني ان اذكر النهضة العباسية الا وأذكر بجانبها أسماء أولئك الأساتذة الكرام الذين نقلوا للامة العربية جل علوم الأقدمين بتدريسهم وتآليفهم وترجمتهم . واول من يجدر ذكره آل بختيشوع واولهم جرجيس الشهير طبيب المنصور الذي تقدم ذكره ثم خلفه ابنه بختيشوع بن جرجيس استقدمه الرشيد من جنديسابور وولاه رئاسة الأطباء وكان له ولد يدعى جبريل على جانب عظيم من الفضل والذكاء عهد به والده الى جعفر البرمكي فصادف ان اعترى هرون الرشيد احتقان صدري فشفاه منه بالفصد وشفى احدى جواريه من فالج صرعي بحيلة جميلة . فأعجب به هرون الرشيد وولاه رئاسة الأطباء وغمره باحسانه وظل جبريل بعد وفاة الرشيد موضع ثقة الأمين والمأمون ونال من الاكرام ما لا يسعه الوصف وجمع ثروة لا تقل عن تسعين مليون درهم في حياته مما ينطق بعظيم احترام الخلفاء للأطباء وتعظيمهم للعلم في اي اناء ظهر (طبقات الاطباء ج ١ من ١٣٢ — ١٣٧) . وخلف جبريل هذا ابنه بختيشوع بن جبريل وكان طبيب المتوكل وقد بلغ من رفعة الجاه وكثرة المال ما لم يبلغه احد في عصره .

وبجانب آل بختيشوع يتلألأ في سماء تلك النهضة آل ماسويه وكان ماسويه صيدلياً في مستشفى جنديسابور ، وقدم بغداد للارتزاق فتوفق لشفاء الرشيد من مرض أصابه في عينيه فحظي عنده . اما ولده يوحنا بن ماسويه فقد كان طبيباً ذكياً فاضلاً قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة التي وجدها في انقرة وعمورية وسائر بلاد الروم اثناء الفتح وقلده إمارة ديوان الترجمة (طبقات الاطباء ١ : ١٧٥) .

وممن يجدر بالذكر ايضاً آل ماسرجويه وهو الذي ألف كناشاً في الطب وسابور بن سهل وكان فاضلاً عالماً وله تصانيف مشهورة منها كتاب الاقرباذين الكبير الذي عمل به في البيمارستانات ودكاكين الصيادلة مدة طويلة .

وتذكر ايضاً تلك النهضة بالجميل آل الطيفوري عبد الله وزكريا واسرائيل وآل ثابت وطبيب هرون الرشيد الهندي صالح بن بهيلة وكثيراً غيرهم ممن كانوا أساتذة في الطب القديم ولجلهم مؤلفات مشهورة في السريانية نقلت الى العربية .

على ان الخلفاء العباسيين أدركوا بادئ بدء ان النهضة العلمية في الأمم لا تقوم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بجلب العلماء الأعاجم والكتب الغريبة وانحصار العلم بفريق من الناس دون الآخر بل يقتضي لها ان يتعرب اولئك العلماء وان تترجم تلك الكتب وان ينشر العلم ما بين طبقات الامة من أدناها الى أعلاها ولذلك كانوا يبذلون كل مرتخص وغال في استجلاب العلماء ونقل الكتب للعربية ، ويرغبون النقلة بالبذل والإكرام والمحاسنة على اختلاف ملتهم وأجناسهم ، ويحثون الناس على تعلمها واقتباسها بجميع الوسائل الخلابة ويجيزون على تأليف الكتب بالأموال الطائلة حتى حدا بهم ولعهم بنشر العلم الى بذلهم الاموال للطالعين فضلاً عن المؤلفين .

واول من قام بهذا الأمر الخليفة المنصور فقد دعا جرجيس الى ان يترجم له بعض الكتب الطبية ففعل غير انها فقدت جميعها . ثم جاء الرشيد ومن بعده المأمون فوسعا نطاق هذا العمل ولم يدخرا جهداً في سبيل تقويته . ولم يكتف العباسيون بنقل العلوم من السريانية فحسب بل طمحوا الى أخذها من مصادرها الأصلية فأرسلوا البعثات العلمية الى بلاد الروم وفارس والهند لاقتباس لغاتهم ومعارفهم وقد طلب الخليفة المأمون من قيصر الروم اذ ذاك ان يتحفه بكل الكتب القديمة المحفوظة في خزائنه لترجمتها فأجابه الى ذلك (الفهرست ٢٤٣) وأسس لهذا الغرض قاعات الترجمة وكان ينفق في سبيل نقل الكتب عن سعة حتى أعطى وزن ما يترجم له ذهباً (ابو الفرج ٢٣٦) واقتدى بالمأمون كثير من اهل دولته من اصحاب الوجاهة والثروة في بغداد كآل شاكر الذين تفانوا في طلب العلم وإكرام العلماء وكانوا ينفقون خمسمائة دينار في الشهر للنقل والملازمة . ومنهم محمد بن عبد الملك الزيات الذي كان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ الفي دينار في الشهر (طبقات الأطباء ١ : ١٨٧) وهذا خير دليل على ان العرب لم يجدوا العلوم القديمة ولا سيما الطب لقمة سائغة تناولوها عفواً بلا تعب ، بل جاهدوا في سبيل إحيائها باموالهم وأولادهم وأنفسهم ، مدفوعين بخالص الشوق للعلم المجرد عن كل تأثير خارجي ، جهاداً اشترك فيه الشريف والوضيع والتاجر والامير والعبد والسيد من أحقر أبناء السوقة الى أجل سلطان وخليفة مما لم يسمع بمثله في تاريخ أمة من الامم .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأشهر اولئك العلماء المترجمين حنين بن اسحق العبادي . ولد في الحيرة عام ١٩٤ للهجرة ثم ذهب الى فارس وتخرج في العربية بالخليل بن احمد ثم انتقل الى بغداد ومنها رحل الى يونان حيث تعلم اللغة اليونانية ثم عاد الى بغداد وقد نضجت معارفه فاجترفه تيار ذاك المترك العلمي الهائل ، فلم يلبث ان نال قصب السبق في مضماره ، فترجم أبقراط وجالينوس وارباسيوس وابن أبجر ، وقلد رئاسة الترجمة فكان يتصفح الكتب المترجمة وينقحها وألف كتباً خاصة في الطب منها كتاب في العين (طبقات الاطباء ج ١ : ١٨٥ — ١٨٩) و برع بجانبه في النقل ابنه اسحق ثم حفيده حبيش .

واشتهر ايضاً بالعلم والحذاقة بالترجمة يعقوب بن اسحق الكندي فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها . نشأ وتأدب في بغداد وكان عالماً بالطب والفلسفة والرياضيات والموسيقى وألف في كل هذه العلوم وأجاد ، وكان له وقوف تام على اليونانية فترجم من كتب الفلسفة الكثير ، وأوضح منها المشكل ولخص المستصعب و بسط العويص ، وكان عظيم المنزلة عند المأمون والمعتصم وله مصنفات جليلة ورسائل كثيرة منها رسالة في علة الجذام وكتاب في الأدوية المتحنة وكتاب الاقرباذين وغيرها من الكتب الطبية الدالة على خبرته وسعة اطلاعه . وقد نقل كتبه هذه الى اللاتينية جرار دي كريمونا في القرن الثاني عشر للميلاد .

ثم برع الى جانبه بالترجمة قسطا بن لوقا البعلبكي وثابت بن قره وابن البطريق وكثير غيرهم من العلماء الاطباء الأفاضل . فنقلوا بعد الجهد الى العربية كتب أبقراط وجالينوس وارباسيوس وديوسقوريدس وثاوفرسطس واسطاث والاسكندر الافروديسي وابن ابجر وغيرهم .

ولم يكتف العرب بنقل علوم اليونانيين بل دفعهم عامل الشوق للعلم الى نقل علوم الهنديين والفرس وكان للهند مدنية رفيعة ومؤلفات جليلة في علم الطب خاصة بهم . فترجموا مؤلفات سيرك الهندي وسيسرد واستانكر وشاناق وغيرهم . ومن الذين نقلوا علوم الهنديين منكه الهندي طبيب هرون الرشيد وابن دهن الهندي طبيب المستشفى البرمكي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

و بالجملة فان العرب نقلوا الى لسانهم معظم ما كان معروفاً في الطب عند سائر الأمم المتمدنة القديمة ، فأخذوا من كل أمة أحسن ما عندها ثم مزجوا ذلك كله واستقطروه ، ثم أضافوا اليه كثيراً من مشاهداتهم وابتكاراتهم ، واستخرجوا ما نسميه قريباً : بالطب العربي .

* * *

ظلت بغداد مهد تلك النهضة العربية كعبة العلم ومحج العلماء ، الى ان ولي الخلافة جعفر المتوكل عام ٢٣٣ للهجرة فاضطهد أصحاب العلوم الدخيلة وأساء الى الاطباء ، واستفحل امر الترك وعظمت أذيتهم للعرب (المسعودي ٢ : ٢٦٩) ففترت قلوب دعاة العلم الحرة وشمخت نفوس طلاب الاصلاح الأبية من ان تألف الضيم وتغضي على القذى ، فتفرقوا رويداً رويداً من بغداد الى انحاء المملكة الاسلامية الى حيث يسود العدل وتورف ظلال الحرية ، يحملون معهم بذور العلم الصحيح فيغرسوها في تلك الصدور الرحبة الخصبة ، ويحرثوها بمحراث تلك العقول الكبيرة ويسقوها من موارد تلك الافكار السامية ، فنبتت عربية تحسدها أبكار اليونان ، قويمة الاغصان بديعة الزهور ذكية الاثمار ، يتضوع أريج نفحاتها في عامة انحاء المملكة العربية ، تلك المملكة التي سنشاهدها الآن في الصف الاول في المعترك العلمي وفي مقدمتها الرازي وابن سينا وابن عباس وابو القاسم وابن رشد وابناء زهر وابن الجزار والفارابي والصوري وابن التلميذ والنبطي وابن البيطار يحملون مصابيح العلم الصحيح ، يمزقون بانوارها ظلمات الجهل والأضاليل متجهين بها من خراسان والعراق ومصر والشام والقيروان والاندلس ، عن طريق صقلية الى سالرنة ، وعن طريق طليطلة الى مونبيلية ، حيث تكاثفت تلك الانوار ومنها عمت اوربا باجمعها .

واول اولئك الرجال العظام الذي يجدر بنا ان نتعته بالمجرب الكبير ابو بكر محمد ابن زكريا المشهور بالرازي . جالينوس العرب . ولد ونشأ في الري في منتصف القرن العاشر للميلاد وأولع لاول امره بالموسيقى ونبغ فيها ثم بالفلسفة والادب . اما صناعة الطب فقد تعلمها وقد اربت سنه على الثلاثين . وذلك ان حبه للسياحة رمى به الى بغداد وكان فيها علي بن ربن الطبري المشهور وكان متميزاً في الطب فدرس عليه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذه الصناعة و برع فيها حتى فاق جميع اطباء عصره . وعهد اليه برئاسة البيمارستان العضدي المشهور وكان يطب فيه اربعة وعشرون طبيباً منهم الطبائعيون والجراحون والكحالون والمجبرون كل يداوي حسب اختصاصه . غير انه لم يلبث في بغداد حتى عاد الى بلده الري وتولى تدبير مستشفاها مدة طويلة . وكان الرازي ذكياً فطناً رؤوفاً بالمرضى ، مجتهداً في علاجهم وفي برئهم بكل وجه يقدر عليه ، مواظباً النظر في غوامض صناعة الطب والكشف عن مكنوناتها وحقائقها ، وكان له المنزلة الرفيعة في الري وطار ذكره في البلاد وكثر طلابه من كل صوب وأربت مؤلفاته على المائتين . وكان يجلس في مجلسه ودونه التلاميذ ودونهم تلاميذهم ودونهم تلاميذ أخر ، فيجيء الرجل فيصف ما يجد لأول من يلقاه فان كان عندهم علم والا تعداهم الى غيرهم فان أصابوا والا تكلم الرازي في ذلك (طبقات الاطباء ١ : ٣١٠) . وأصيب الرازي في آخر ايامه بالزرقاء وامتنع عن عملية القدح وكان عرض عليه بعض المتطببين ان يقدح فسأله الرازي كم طبقات العين ؟ فلم يجبه . فقال له لا يقدح عيني من يجهل طبقات العين . وقد توفي الرازي عن عمر يناهز الثمانين سنة عام ٣٢٠ للهجرة .

ومن أشهر مؤلفات الرازي في الطب كتاب الطب الملوكي في العلل وكتاب علاج الامراض كلها بالأغذية ودس الأدوية بالأغذية حيث لا بد منها وما لا يكرهه العليل ، وهو كتاب بديع في بابه . وكتاب المنصوري ألفه للامير المنصور بن اسحق بن اسماعيل بن احمد صاحب خراسان وتحرى فيه الاختصار والايجاز مع جمعه لجمل وجوامع ونكت وعيون من صناعة الطب علماً وعملها ، وهو عشر مقالات درس في الاولى منها الطب الأخلاقي فعدد الصفات الكريمة التي يجب ان يتحلى بها الطبيب ثم حمل حملات عنيفة على الدجالين والمتطببين الأميين لما ينجم عنهم من الأضرار ومن كلامه في ذلك : الاطباء الأميون والمقلدون والذين لا تجربة لهم ومن قلت عنايته وكثرت شهواته قتالون . وقد نقل المنصوري الى اللاتينية جرار دي كريمونا ودرس في باريز زمناً طويلاً ومنه نسخة في دار الكتب العربية في دمشق .

ومن كتب الرازي المشهورة الجامع و يسمى حاصر صناعة الطب وفيه جمع ماوقع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اليه وأدركه من كتاب طب قديم او محدث . وكتاب الجدري والحصبة وهو مفرد في بابه له من الشأن في العالم الطبي درجة رفيعة . فالرازي اول من وصف هذه الامراض واول من فرق الحصبة عن الجدري وكان سلفه يدمجونهما معاً . ووصفه هذين المرضين مستوفٍ من كل الوجوه شامل لأنواعها غير الطبيعية وهو يداوي بهما بصورة حسنة ومما يسجل له بقلم الفخر انه اول من قال باستعمال الماء البارد في الحصبة المختلطة والاختناق الصدري وهذا من خيرة ما يتوسل به الطب الحديث في معالجة مثل هذه الادواء . وقد لفت الرازي النظر في الانذار في الجدري الى نقاط مهمة لا أرى في بيانها احسن من ان اقرأ على مسامعكم كلام الاستاذ بوشوت في تاريخ الطب والمذاهب الطبية (ص ٣٤٧) وها كم تعريبه عن كتاب الجدري للرازي : « هنا يتجلى الطبيب المجرب باكمل مظاهره اذ لا يوجد في مشاهداته ما يدعو للانتقاد (فقد قال الرازي في الانذار في الجدري) يوجد نوع من البثور البيضاء الكبيرة الحجم تكون في الغالب قتالة وهي البثور المتفشية التي تمتد بصورة يتصل بعضها ببعض وتشغل مساحة كبيرة او التي تؤلف دوائر متسعة ولونها لون الدهن . قال بوشوت ولم أر اصح من هذه البينة فاني ما شاهدت بثور مجدور انبسطت وتلونت بلون الدهن او الجص الا وكان الموت نتيجتها » . وقال بوشوت ايضاً (ص ٣٤٠) الف الرازي كتاباً في امراض الاطفال وهو اول كتاب في هذا الموضوع ظهر في التاريخ وكتاباً في دودة المدينة وفي الانتفاخ العظمي السلامي الذي لم يصفه احد قبله .

وللرازي رسالة في الحصا في الكلي والمثانة منها نسخة في دار الكتب العربية الظاهرية في دمشق رقم (١٠٣) وهي من خيرة ما كتب في هذا الموضوع . عدد فيها الرازي الاسباب التي تتولد منها هذه العلة . ثم بحث في طرق الوقاية منها وكيفية مداواتها مما لا يختلف عما يأتيه الطب الحديث في هذا المرض .

وأجل كتب الرازي وأعظمها : (الحاوي) جمع فيه كل ما وجده مشتتاً في ذكر الامراض ومداواتها من جماع الكتب الطبية للمتقدمين ومن اتى بعدهم الى زمانه ونسب كل شيء نقله فيه الى قائله ونقد تلك الأقوال بصورة تنطق بسعة اطلاعه وفرط ذكائه وعظيم تجاربه . وقد درس فيه الرازي بالتتابع الامراض الموضعية ثم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الامراض العموميـة ثم السموم والافرازات السامة ثم الادوية . والطب مدين له بمشاهدات كثيرة في الحميات الخبيثة وامراض الاطفال وامراض الجلد والتقلصات الوجهية الاختلاجية الموجعة . وفيه يوصي كسلفه بالاهتمام بمعاينة البول وينتقد بشدة فرط استعمال المسهلات القوية التي تخرش المعى . وفي كتابه الحاوي في بحث الحميات نظرية خطيرة لم يسبقه اليهـا احد وهي ان الحمى ليست مرضًا حقيقيًا بل هي عرض ينبئ بمقاومة الجسم لدفع المرض الحقيقي .

اما من الوجهة الجراحية فالطب مدين للرازي بأول مشاهدة في انتناخ العظم السلامي وبمشاهدات في الفتق والدوالي الوريدية والأورام الباسورية والحصى والقيلة المائية وانقلاب الرحم والجيوب الوعائيـة . وينتقد على الرازي في الجراحة استعماله الآلات في تجبير الكسور وارجاع الخلع بدل اليدين . ويرى ان الرازي لم يهتم بادئ بدء بالجراحة التي كان يعانيها اذ ذاك الدجالون وغيرهم غير انه عني بها اخيراً وأجرى بنفسه عمليات كثيرة ومع ذلك فهو لم يشتهر بالجراحة .

وينتقد كتاب الحاوي لكونه مشوشًا مضطربًا والسبب في ذلك ان الأجل لم يفسح للرازي ان يحرر هذا الكتاب فتركه بصورة مسودات اخذها ابن العميد استاذ الصاحب بن عباد من اخت الرازي بعد ان بذل لها دنانير كثيرة وجمع تلاميذه الاطباء الذين كانوا في الري فرتبوا الكتاب على صورته الحالية (طبقات الاطباء ج ١ : ٣١٤) .

وقد كان للحاوي رواج ومكانة عظمى في عالم الطب في آسيا واوربا . فترجم الى اللاتينية عام ١٢٧٩ ميلادية والسبب في ذلك كما قاله لكرينك في كتابه تاريخ الطب العربي (ص ٤٦٢) وهو ان الشهرة التي طارت لهذا الكتاب في آسيا والمغرب دعت الملك شارل ملك صقلية الى اتحاف أمته بمثل هذا الكتاب المفيد فأوفد الى تونس بعثة علمية وطلب الحاوي من اميرها في ذلك الوقت وعهد الى فراجيوس اليهودي وكان يحسن اللاتينية والعربية فنقله له ومن ذلك الحين انتشر في جميع مدارس الطب الاوربية . ولم تزل للحاوي منزلة رفيعـة في هذا العصر وذلك لتمثيله الطب العربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولما فيه من المشاهدات والنظريات ولما ذكر فيه من اسماء الأقدمين الذين لم يعثر على شيء من تراجمهم ولم يعرفوا ويحيوا الا به .

والرازي اول من استعمل المواد المعدنية المركبة في المداواة كمورياتالزيبق والبورق وآزوتية البوتاس وروح النشادر وملحه وغيرها وهو اول من فرق العصب الحنجري الاعلى من العصب الراجع واول من ذكر ماء الحياة ..

ويتضح مما تقدم ان الرازي لم يكن مقلداً كمن سبقه من الأطباء بل كان اماماً مجتهداً ، انتقد الأقدمين في كثير من آرائهم وأضاف على الطب القديم مشاهدات جمة ومفردات كثيرة وتجارب عديدة (كما هو مبين في كتابه تجارب المارستان) ونظريات مبتكرة حققتها العصور التالية من بعده . وعلى الجملة فقد كان الرازي استاذاً في الطب وبطلاً من أعظم أبطال هذا العلم وعاملاً كبيراً في النهضة الطبية العالمية .

(للكلام صلة) الدكتور اسعد الحكيم

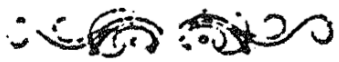

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تاريخ الطب عند العرب

- ٣ -

وقد نبغ الى جانب الرازي في الطب علي بن العباس المجوسي من الاهواز وقد كان طبيباً مجيداً متميزاً في صناعة الطب . ومن موجبات الاسف اننا لم نقف على كثير علم من ترجمته . وله الكتاب المشهور الذي يُعرف بالملكي صنفه للملك عضد الدولة الديلمي من آل بويه . وهو كتاب جليل مشتمل على أجزاء الصناعة الطبية علمها وعملها في عشرين مقالة . وقد نسق فيه سبل الأقدمين ما عدا المفردات الطبية فزاد عليها كثيراً . وفيه لابن العباس نظريات ومشاهدات خاصة في الحصاة وانقلاب الرحم وهو اول من ذكر فرقعة العظم في تشخيص الكسور وحصول الكسر من جراء التقلصات العضلية الشديدة . وقد انتقد المجوسي في مقدمة كتابه الملكي أعاظم الأطباء الاقدمين والمعاصرين له ، وأظهر نواقص كل منهم مما ينطق ببعد نظره وسعة علمه . والملكي هو الكتاب الوحيد في الطب الذي حمله الصليبيون معهم الى اوربا ونقله الى اللاتينية قسطنطين الافريقي الشهير وانتحله لنفسه تحت عنوان پانتبني ودرسه في مدرسة سالرنة فطار ذكره في جميع انحاء اوربا ولقب بالبابغة المجدد الى ان ترجم الملكي الى اللاتينية آتيان الانطاكي في القرن الثاني عشر للميلاد فانكشف اذ ذاك عن حقيقة قسطنطين الحجاب واتضح انه منتحل ظاهرة الكتب العربية كما سيأتي بيانه .

وبينما العرب في المشرق يستقطرون العقاقير ويحلون المعادن ويستخرجون الكحول ويصفون الحصبة والجدري ويعالجون الحميات بالماء البارد كان اخوانهم في المغرب في تلك الاندلس الجميلة يشرحون الاجساد ، ويخزعون الحصاة ، ويجبرون الكسور ، ويعملون الاعمال الجراحية الكبرى ، وفي رأسهم ابو القاسم الزهراوي محيي الجراحة ومجددها .

ولد ابو القاسم في الزهراء قرب قرطبة ، وقد اختلف في تاريخ ولادته ويغلب ان تكون في أوائل القرن الحادي عشر . وكان طبيباً فاضلاً خبيراً بالادوية المفردة والمركبة وجراحاً كبيراً بلغ بالجراحة مبلغاً لم يصل اليه غيره من الاطباء في ذلك التاريخ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أهملت الجراحة زمناً عند العرب على نحو ما بقيت أعصاراً مهملةً عند الغربيين. وكان العرب يحتقرونها لانها صنعة يدوية . و بالنظر لامتناعهم من تشريح الموتى وقناعتهم من هذا الفن بما يدرسونه في كتب الأقدمين ظلت الجراحة عندهم متأخرة زمناً غير قليل . ومازال حال الجراحة والتشريح من الاهمال على ذلك حتى جاء ابو القاسم الزهراوي فحطم بحديد جرأته تلك القيود ، وبدد بساطع حجته تلك الاوهام ، ونهض بالجراحة من سافل محطها الى اسمى مايليق بها من الكرامة والرقي . فحث على درس التشريح وحض على تشريح الموتى . وبذل كل ماأوتيه من قوة في سبيل ترقية الجراحة وتعليمها . وله في صناعة الطب تصانيف مشهورة أفضلها كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف وهو مؤلف من ثلاثين كتاباً . اول كتاب منها يبحث في العموميات الطبية ثم يأتي درس الامراض على اختلافها بالترتيب ويمتاز الكتاب الواحد والعشرون بفصل خطير بحث فيه ابو القاسم في تفتيت الحصاة داخل المثانة و كيفية صنع هذه العملية ذات الشأن التي لم يسبقه اليها احد . وفي الكتاب الثامن والعشرين بحث في الادوية البسيطة ويقسمها الى ثلاثة أقسام الأدوية المعدنية والأدوية النباتية والأدوية الحيوانية . وهو كتاب فريد في بابه مبتكر في تصنيفه غني بمشروحاته في الأدوية المفردة . اما الكتاب الثلاثون فهو أجل ما كتب وخيرة ما ابتدع في الجراحة الى ذلك العهد نقله جراردي كريمونا الى اللاتينية في القرن الثاني عشر في مدينة طليطلة ومنه نسخة في المكتبة الأهلية في باريز رقم ٧١٢٧ .

ويمتاز هذا الكتاب بالصور والرسوم فهو اول مؤلف شوهدت فيه رسوم الأعضاء والهيكل العظمي ورسوم جميع الآلات الجراحية المذكورة في متنه مع وصف كيفية استعمالها . وهو يقسم الى ثلاثة أقسام : فالجزء الاول يبحث في الكي وفوائده وفي الأمراض المختلفة التي ينفع فيها . ويبحث ابو القاسم في الجزء الثاني في الجراحة بالآلات القاطعة وفيه يتكلم على كيفية استئصال السليلة الأنفية (البوليبس) بواسطة آلة اخترعها لهذه الغاية على شكل صنارة ويصف كيفية استئصال العقد اللنفاوية الرقبية المزمنة ويبحث في كيفية اخراج السهام الداخلة في الجسم و يتكلم في الجروح النافذة في البطن والصدر وفي طريقة اخراج الاجسام الاجنبية من داخل المري بواسطة اسفنجة متصلة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بخارج الفم بخيط متين ، وفي قدح العين بواسطة آلة مجوفة يمتص منها . و يستدل من مشاهداته انه أجرى تدر يز البطن (Gastrovrhaphie) وخزع القصبة (Bronchotomie) وانه أول من خزع الحصاة عند المرأة (Lithotomie) وقدعثرنا على وصفه هذه العملية الخطيرة في ذيل كتاب الحصى للرازي المنوه به سابقاً . وهو اول من أصلح طرز عمليات البتر وكان من قبله يبترون القسم المعتل فقط ، اما هو فقد أوصى بالقطع في الأنسجة السالمة عن بعد من الأنسجة المر يضة كما هي الطر يقة المتبعة اليوم . وقد قال هلرو پورتال ان اباالقاسم وصف قبل (امبرواز باره) ربط الاوعية . و بحث ايضاً في هذا الجزء في الولادة فأشار بقلب الجنين في الاعتلان المستعرض وذكر طر يقة تفتيت الجنين ووصف الآلات اللازمة لجذبه ولتوسيع عنق الرحم وفيه مشاهدة مهمة في الحبل لخارج الرحم . و بحث ايضاً في الالتهابات المتقيحة فأوصى بخزع الخراجات القر يبة من المفاصل في بادئ ظهورها و باستئصال جميع الاقسام المر يضة في الالتهابات العظمية وذلك خير ماتوصي به الجراحة الحديثة . و ينتهي هذا الجزء بتعداد القواعد التي يجب مراعاتها في العضد .

اما الجزء الثالث من هذا الكتاب فهو ابحث في الكسر العظمي والتجبير وخلع المفاصل ومعالجته . و ينتقد على ابي القاسم في هذا الباب ترجيحه استعمال الآلات الميكانيكية في إرجاع الخلع وتجبير العظم على الأيدي . و يتكلم في هذا الجزء عن الخلع المزمن وطرق معالجته وهو اول من اشتغل بهذا الموضوع .

هذه هي خلاصة أبحاث كتاب التصر يف ومنها تجلى للابصار منزلة ابي القاسم الرفيعة في عالم الجراحة والانقلاب العظيم الذي أحدثه (التصر يف) في انحاء العالم .

قال الاستاذ بوشوت في كتابه تاريخ الطب والمذاهب الطبية (ص ٣٥٢) ما تعر يبه : ان جراحة ابي القاسم التي ترجمها حديثاً لوسين لكران هي وايم الحق مبتكرة وهي اهل للمديح الكثير الذي وصفها به فبر يس دكابندانتي (القائل ان ابا القاسم يعد المثل الاعلى للعلم) فاننا نشاهد فيها كثيراً من الرسوم (الى ان قال) وقد حببت بهذا الطبيب الجراحة العملية الخطيرة المتدرسة من عهد بعيد . فقد استأصل سليلة الانف وعالج بحجر جهلم . واستعمل الكاو يات في أمراض لم يجسر احد قبله ان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يستعملها فيها . وكان يؤثر الحديد على غيره من المعادن فعالج بالكي بالحديد ثقلصات الوجه الاختلاجية المؤلمة وكان يكوي فيها خلف الصدغ او عند ملتقى الشفتين وعالج بالكي الجذام الدرني والقروح السرطانية والنزف الخ » . وجاء في خطاب الاستاذ فورغ الجراح الحالي الشهير الذي ألقاه في تشرين الثاني ١٩٢١ في الاحتفال الذي عقد احتفاءً بمرور سبعمائة سنة على جامعة مونبيليه ما تعريبه : في القرن العاشر والحادي والثاني عشر وضع العرب واليهود (وكان اليهود الصلة بين العرب والفرنج) في مونبيليه أسس المعارف الطبية . وكانت مدارس الطب في الاندلس حافلة زاهرة كمدارس الطب في آسيا . وفي القرن التاسع (والصحيح الحادي عشر) ظهر في قرطبة ابو القاسم الذي أحدثت كتبه الجراحية في جامعتنا هذه أعظم تأثير يدلنا عليه استشهاد الاستاذ جي دي شولياك به اكثر من مائتي مرة » وقد ترجم القسم الجراحي من التصريف جراردي كريمونا الى اللاتينية وترجم كله الى العبرانية واللغة البروفانسالية وغيرها . وانتشر في اوربا انتشاراً هائلاً وأحدث فيها انقلاباً جديداً ودرس في اول عهده في سالرنة وغيرها من مدن ايطاليا زمناً طويلاً وحمله الى فرنسا في القرن الثالث عشر فريق من الاطباء الايطاليين الذين التجأوا اليها لاحكام سياسية ومنهم روجي دي پارمه الذي نالت مؤلفاته في الجراحة شهرة عظيمة ، وهي لم تكن في الحقيقة سوى انتحال افكار ابي القاسم في الجراحة وأعماله فيها . ولا أرى أجل برهان على ذلك من تصريح الفرد فرانكلن في كتابه التنقيب عن اصول الجراحة ورقيها في فرانسا (ص ٣٢) ما تعريبه : « جدد ابو القاسم ذلك النابغة الرحب الجسور فن الجراحة عند العرب فطار ذكره في الأقطار ودخلت مؤلفاته ايطاليا فكان فيها ابو القاسم دليل الجراحين في أعمالهم وفي تصانيفهم . وما الجراحون الذين نبغوا في ايطالية بعد ابي القاسم الا نقلة ومقلدون لهذا الرجل العظيم . وقد نظر الى هؤلاء الجراحين بعين الاعجاب وعدوا مجددين للجراحة على انهم في الحقيقة لم يزيدوا على الجراحة أقل شيء جديد . بل أدخلوا فيها اختلافات كثيرة (الى ان قال) وقد أخذ من كتاب ابي القاسم روجي دي پارمه كل القواعد التي تتألف منها مصنفاته ولم يذكر مآخذها وانتحلها لنفسه فنال بذلك تلك الشهرة والمكانة العظيمة » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا هو ابو القاسم وتلك أعماله وهـذه شهادات أعاظم أساتذة الطب الحديث في اوربا بفضله وعلو مكانته ، ولا أرى ان أزيد عليهـا الا ما قاله الاستاذ فرند الانكليزي ابو القاسم هو محيي الجراحة ومجددها » .

* * *

وبينما كان بدر ابي القاسم يتلألأ في سماء الاندلس كانت تضيء في خراسان شمس ابن سينا ذلك الشيخ الرئيس فتنير باشعتها ظلمات الافكار وتمزق بانوارها غوامض العقول .

ولد الحسين ابو علي بن عبد الله بن سينا في بخارى عام ٣٧٥ للهجرة وكان آية في الذكاء ومعجزة بقوة الادراك أتقن اللغة والأدب وهو في العاشرة من عمره . ثم درس الفلسفة العقليـة والالآهيـة والفقه والرياضيات والطب وما وراء الطبيعة ، وفاق أهل زمانه في كل هذه العلوم وهو لم يتجاوز الثاني عشرة سنة من عمره . وقد قلده الامير شمس الدولة الوزارة في همذان فتقلدها ثم عزله وحبسه لاسباب ادارية ، وكان شمس الدولة مصاباً بالقولنج فاشتد عليه الألم فطلب الشيخ واعتذر اليه فاشتغل بمعالجته ، وأقام عنده مكرماً مبجلاً . وأعيدت الوزارة اليه ثانياً وبقي فيهـا الى ان توفي شمس الدولة وخلفه تاج الملك فاتهم الشيخ بمكاتبة علاء الدين امير اصفهان فسجنه اربعة اشهر ثم خلي سبيله فذهب الى اصفهان وصادف فيها في مجلس العلاء ما يستحقه من الاكرام والاعزاز . وكان ابن سينا شديد القوى كلها وكان شديد الشبق كثير الوقاع والشرب فأثر ذلك في مزاجه فاعتراه مرض القولنج في اصفهان ولما اشتد به رجع الى همذان وتوفي فيها عن عمر يناهز الثالثة والخمسين سنة ٤٢٨ للهجرة . وله مؤلفات عظيمة في جميع العلوم وأشهر ما ألفه في الطب كتابه القانون ومنه نسخة في دار الكتب العربية في دمشق . وهو أشهر من نار على علم جمع فيه زبدة ما وصل اليه علم الطب عند اليونان والكلدان والفرس والهندبين وانتقد كثيراً من أقوال سلفه وزاد عليهم أشياء كثيرة . وقد لقي القانون في الشرق وفي اوربا رواجاً لم يلقه كتاب غيره . وهو يقسم الى خمسة أجزاء فالجزء الاول يبحث في النظريات الطبية وفيه ينحو منحى جالينوس ويتهج منهج ارسطاطاليس . والجزء الثاني يحتوي على ثمانمائة فصل في المفردات الطبية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومنها مواد كثيرة كان يجهلها الأقدمون . ويبحث الجزء الثالث في الامراض الموضعية من الرأس الى القدم . والرابع في الامراض التي من شأنها ان تعتري اعضاء مختلفة كالغرغرينا والخراجات مثلاً وابن سينا اول من فرق الحميرة اي الحمى القرمزية عن الحصبة والجدري . اما الجزء الخامس من القانون فهو مختص بالصيدلة ، ولا يخفى ما كانت عليه الصيدلة عند العرب في ذلك العهد من التكامل ، ففي هذا الجزء فصول ضافية عن المركبات التي أوجدها العرب كالمعوفات والأشربة والصباغ والكحولات والربوب وغيرها من التراكيب الصيدلية . وذكر في هذا الجزء المداواة بالذهب والاحجار الكريمة مما رجع اليه فن المداواة الحالي وانتقد استعمال المسهلات القوية واوصى بتعديلها او بالاستعاضة عنها بالملينات . وكان يستعمل الفصد و يوصي به في أمراض كثيرة و يداوي السو يداء بالأرجوحة . وقد أدرك المتخصصون بالامراض العقلية والعصبية فائدة المداواة بالاهتزاز في هذا العهد الأخير . اماالقسم الجراحي من القانون فليس فيه ميزة خاصة يمتاز بها . وقد لقي القانون أعظم إقبال ورواج في عالم الطب في الأقطار والأمصار فترجم الى لغات متعددة وشرح شروحاً كثيرة وكان عليه معول التدريس في اور با في المدارس الطبية مدة خمسمائة سنة . وكان في جانب جالينوس وأبقراط المرجع الاعلى في العالم الطبي . وقد طبع القانون لأول مرة بالعربية في روما سنة ١٥٩٣ ونقله في القرن الثاني عشر الى اللاتينية جراردي كريمونا وما جاء القرن الرابع عشر حتى أعيدت ترجمته اربع عشرة مرة . وما زال القانون حجة الأطباء وموضع الإعجاب الى أواخر القرن المنصرم فأضاع شيئاً من تلك العظمة وذلك لان الطب الحديث لم ينظر اليه من الوجهة التي نظر اليه منها السلف فهو في نظره قاموس في الطب والصيدلة جمع خلاصة أبحاث اليونان والكلدان والهنود والفرس والعرب في الامراض ومعالجتها والعقاقير وخصائصها فهو كتاب جليل من حيث الجمع والاستيعاب ولكنه دون الملكي والتصريف من حيث التجدد والابتكار . غير ان هذا الحكم لا يمس عظمة ابن سينا ومقدرته العلمية فهو لم يزل لدى المتأخرين كما كان عند المتقدمين ، نابغة في الذكاء ، بحراً في العلوم ، أشبه به بمعلمة (دائرة المعارف) حية تكاثفت فيها علوم الأقدمين من الفلسفة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والآنيات واللغة والادب والفقه والكيمياء والحكمة والرياضيات والفلك والموسيقى والطب مما لم يشاهد في انسان غيره . وقد صنف في كل هذه العلوم وأجاد وكتبه تربو على المئة . قال الاستاذ بوشوت في تاريخ الطب والمذاهب الطبية (ص ٣٤٩) مهما كثرت الأقوال (في ابن سينا) فهنالك صوت عالٍ تصمت أمامه انتقادات المؤرخين ألا وهو صوت عظمة ابن سينا وتأثير مؤلفاته . (الى ان قال) ومؤلفاته (الأصح مؤلفه) المدعوة بالقانون ظلت بحق القانون والدستور الطبي في آسيا واوربا مئات من السنين . وقد بلغ الاعجاب بهذا المؤلف في اوربا بحيث اقتصر معها اساتذة الطب في الجامعات على قراءة متنه وشرحه . فكان جرنر دي رولفنك يشرحه في جنوة في القرن الثامن عشر وكذلك في لوڤن من مدن البلجيك وكان قد طبع شرحه فيها بلجبوس عام ١٦٥٨ . وظل التدريس على هذه الصورة في مونبيلية زمناً طويلاً .

* * *

وبينا نشاهد الطب الحديث ينازع ابن سينا لقب المجدد ، نراه يجود بهذا اللقب على ابي مروان عبد الملك بن ابي العلاء بن زهر . أعظم طبيب عربي فاق من تقدمه من الوجهة العملية واكبر مجدد في فن الطب نزع عنه ما خلق من النظريات التي لم تؤيدها المشاهدات ولم تسندها التجارب . فكان يسير الى جنب ارسطاطاليس كلما جمع ما بينهما العلم والعمل و يفترق عنه كلما خالفت التجارب نظرياته ، ومما ساعده على النبوغ في الطب عدم اشتغاله بغيره من العلوم كمعاصريه من الاطباء . ولد عبد الملك ابن زهر في اشبيلية في الاندلس من أسرة جل أفرادها اطباء ، فقد كان جده مروان بن زهر ووالده ابو العلاء بن زهر من خيرة الاطباء المشهورين بالحذق والمعرفة . وكذلك ولده الخفيد وأحفاده فقد كان لهم منزلة رفيعة في الطب والمداواة كما ان ابنته وحفيدته كانتا عالمتين بصناعة الطب والقبالة ومداواة النساء وكانتا تدخلان الى نساء المنصور ولا يقبل للمنصور واهله ولداً الا هن . وكان ابو مروان جيد الاستقصاء في الادوية المفردة والمركبة حسن المعالجة . شاع ذكره في الاندلس واوربا واشتغل الأطباء بمصنفاته . ولم يكن في زمانه من يماثله بالجراحة فقد كان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بقصد مرضاه بيده ، ويجري جميع العمليات الجراحية ماعدا خزع الحصاة عند المرأة ، فقد كان يمتنع منها لمانع أدبي . واختص عبد المؤمن امير المؤمنين ابن زهر لنفسه وجعل اعتماده عليه في الطب وأناله من الأنعام والعطاء فوق أمنيته وكان مكيناً عنده عالي القدر وألف له الترياق السبعيني وتوفي سنة خمسمائة ونيف ودفن في اشبيلية وقد اشتغل عليه في الطب كثيرون . وكان من أجل تلاميذه في صناعة الطب والآخذين عنه ابو حسين ابن اسدون المشهور بالمصدوم وابو بكر بن الفقيه القاضي ابي الحسن قاضي اشبيلية وابو محمد الشذوني وابو عمران ابن ابي عمران (طبقات الاطباء ج ٢ : ٦٧) ولاصحة لما قاله بعضهم من ان ابن رشد كان من تلاميذه كما سنبينه فيما يأتي .

ومن أجل كتبه في الطب كتاب التيسير في المداواة والتدبير ألفه للقاضي ابي الوليد محمد بن احمد بن رشد وكان قد سأله ذلك ابن رشد ليكون متمماً لكتابه الكليات ولم يعثر على سواه من كتبه وهو كتاب عملي سهل المأخذ بصورة كناش بخلاف الملكي والقانون اللذين امتازا بصفتهما العلمية المدرسية . وقد درس فيه ابو مروان الأمراض بالتتابع من الرأس الى القدم ، ووصف الأعراض الداخلة على كل عضو من الاعضاء بمفرده عرضاً عرضاً ، ومعالجة كل منها وطرق تركيب الادوية بصورة ممتازة من الأقاويل الجزئية ذات المكانة الكبرى في فن الطب . وحمل ابن زهر حملات عنيفة على الدجالين والمنجمين الذين شوهوا وجه الطب بالخرافات والتدجيل . وكان لابن زهر وقوف تام على التشريح لا سيما الهيكل العظمي وكان يتردد الى المقابر يدرس فيها العظام . ومن المشاهدات الخاصة بابن زهر مشاهداته في الفلج والكمنة وأمراض الجهاز الهضمي وخراجة غلاف القلب وذات غلاف القلب وغيرها . ومن مبتكراته استعماله أنبوبة مجوفة من القصدير لتغذية المصابين بعسر البلع واستعماله الحقن المغذية في المستقيم وكان من قبله يجهلون ذلك ويستعملون مغاطس الحليب للمصابين بهذه العلة وقد انتقد هذه الطريقة بصورة حقة . وقد نبذ استعمال المسهلات الشديدة وكان يستعيض عنها بالمليّنات . وكانت له مهارة تامة في تشخيص الكسور وتجبيرها وقد أجرى كثيراً من العمليات الخطيرة كخزع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القصبة . وهو اول من لفت النظر الى إمكان ايجاد خواص في النبات غير موجودة فيه كإعطاء العنب خاصة الاسهال وذلك بسقي كرمته بماء مزيج بأدوية مسهلة مما أحدث في علم خواص النبات تجديداً محسوساً . وابلى ابو مروان ابن زهر بلاءً حسناً في تجديد فن المداواة ونشر التدبير البسيط في معالجة الأمراض بدل التدبير المشوش بالمفردات الكثيرة والتراكيب المتعددة .

وأصيب ابن زهر بخراجة في حيز المثلث الصدري ووصف هذا المرض في كتابه وهي اول مشاهدة عثر عليها الطب في ذلك . قال الاستاذ بوشوت في تاريخ الطب (ص ٣٥٥) اشتغل ابن زهر زمناً طويلاً بالجهاز العظمي حتى تمكن من معالجة الكسر والخلع معالجة دقيقة . وقد أجرى مراراً فتح الميت مما ساعده على وصف التشريح المرضي في خراجة حيز مثلث الصدر . وذات غلاف القلب واستسقاء غلاف القلب والالتصافات الليفية القلبية التي يسميها الزوائد القلبية . وعني بعسر البلع وأوصى باستعمال الحقن المغذية في المستقيم » .

وقال فرند : « يوجد لابن زهر ملاحظات في حس العظم والاسنان مما هو مختلف فيه حتى اليوم . وله مشاهدات في السل الناتج عن القرحة المعدية وفي الاختناق الحاصل من فلج المري وأخيراً في المحجاج اي المثقب المنشاري والحصى البولية وغيرها » . ونزيد على ذلك ما قاله الاستاذ جبار في جامعة ليون في بحثه عن الجرب في كتابه الطفيليات (ص ٥٠١) ما نعربه : والذي وصف الجرب هم الاطباء العرب فقد أثبتوا انه مرض سار يظهر غالباً بين الأصابع ويظهر ان ابن زهر في القرن الثاني عشر هو الذي اكتشف طفيليته وسميها صؤابة الجرب » . واذا نظرنا الى هذا الاكتشاف المهم وأضفنا اليه ما عددناه من أعمال ابي مروان ابن زهر يتجلى لنا في شخصه الطبيب المجرب المجدد في أجل مظاهره واكمل أوصافه .

***

وكان معاصراً لعبد الملك بن زهر القاضي ابو الوليد محمد بن احمد بن محمد المشهور بابن رشد فيلسوف العرب واحد تلك الاسماء العظيمة التي تفتخر بها مملكة الاندلس . كان واحداً في علم الفقه والخلاف وامتاز بالفلسفة والطب وكان في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاولى أنبغ منه في الطب وكان بينه وبين ابي مروان ابن زهر مودة . ولما ألف كتابه الكليات الذي سيأتي ذكره وهو في الامور الكلية قصد من ابن زهر ان يؤلف كتاباً في الامور الجزئية لتكون جملة كتابيهما ككتاب كامل في صناعة الطب ولهذا يقول ابن رشد في آخر كتابه ما هذا نصه : « فمن أحب ان ينظر بعد ذلك (اي بعد درس كتابه) في الكنانيش فأوفق الكنانيش له الكتاب الملقب بالتيسير الذي ألفه في زماننا هذا ابو مروان ابن زهر وهذا الكتاب سألته انا اياه وانتسخته فكان ذلك سبيلاً الى خروجه (الى ان يقول) ولا حاجة الى من يقرأ كتابنا هذا الى ذلك » . (طبقات الاطباء ج ٢ : ٧٥) ومن هذا يتضح ان ابن رشد لم يكن تلميذاً لابن زهر كما جاء في المعلمة الفرنسية الكبيرة التي أخطأت في تراجم كثير من أطباء العرب وفي الكتب التي أخذت عنها كمعلمة البستاني وغيرها بل كان بينهما مودة . وان ابن رشد ألف في الطب قبل ان يكتب فيه ابن زهر وانه كان ينظر الى تيسير ابن زهر نظره الى كناش متمم لكتابه الكليات قد يستغنى عنه . ولد ابن رشد في قرطبة في أوائل القرن السادس للهجرة ونشأ فيها وولي القضاء في اشبيلية ثم في قرطبة وكان مكيناً عند المنصور وجيهاً في دولته ، ثم ان المنصور نقم عليه ونفاه الى اليسانة لاحقاد شخصية ثم رضي عنه فعاد الى قرطبة . وقد أخذ الطب عن ابن باجه وعن ابي جعفر بن هرون (طبقات الاطباء ج ٢ : ٧٣) وقطع فيه شوطاً بعيداً وله مؤلفات جليلة في الفلسفة والطب أشهرها في الطب الكليات وهو كتاب جامع كامل ويقسم الى سبعة أجزاء الاول منها في التشريح وكان ابن رشد يهتم به كثيراً و يرغب فيه ، ومن كلامه في ذلك من اشتغل بعلم التشريح ازداد ايماناً بالله . والثاني في الصحة والثالث في الادواء والرابع في مداواة الأمراض والخامس في الادوية والاطعمة والسادس في حفظ الصحة والسابع في التداوي . ولابن رشد بحث خطير في مراكز القوى العقلية في الدماغ وقد ترجم الحاوي فى القرن الثالث عشر ارمانجو احد أساتذة جامع مونبيلية ودرس فيها وطبع لاول مرة فى البندقية سنة ١٤٨٢ م وانتشر في مدارس الطب فى اوربا جمعاء . وتوفى ابن رشد فى مراكش سنة ٥٩٥ للهجرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يضطرني البحث الى عقد جلسات متوالية فيما اذا أردت ان استقصي ذكر كل من اشتهر في الطب عند العرب وذلك لا يتسع له المجال ، ولا تساعد عليه الاحوال ، غير نه يعزّ عليّ ان أمرّ بهذا الجمع الغفير من اولئك الأساتذة العظام الذين رفعوا لواء العلم على عامة قلل العالم دون ان أحيي أعاظم قوادهم . وليت شعري من منهم غير قائد لجيش صحي بعام . ولما كان الضيف أولى بالاكرام ، أرحب باديء بدء بالفارابي نزيل دمشق المتوفى عام ٣٣٩ للهجرة ومنزلته في الفلسفة والطب والرياضيات والموسيقى اسمى من ان توصف ، ونصافح معه البيروني صاحب التآليف في التاريخ الطبيعي التي منها كتاب الجماهر في الجواهر والآثار الباقية عن القرون الخالية وكتاب الصيدلة في الطب الذي استقصى فيه معرفة ماديات الادوية ومعرفة اسمائها . ونحيي بعده سنان ابن ثابت الصابي طبيب المقتدر بالله والقاهر ورئيس الدواوين والمستشفيات في بغداد وواضع المعاهد الصحية الواسعة فقد أفرد في زمانه للسجون أطباء يدخلون اليها في كل يوم يحملون الأدوية والاشربة ويطوفون السجون يعالجون فيها المرضى . وأنفذ الأطباء السيارين مصحوبين بخزائن الأدوية والأشربة يطوفون في السواد ويقيمون في كل ناحية منه بقدر ما تدعو الحاجة اليه ويعالجون من فيه من المرضى . وكان يشرف على المستشفيات ويراقب الأعمال والعمال فيها . وفي سنة ٣٠٦ فتح بيمارستان السيدة وجلس فيه ورتب الأطباء وقبل المرضى وكانت النفقة عليه ستمائة دينار في الشهر . وفي هذه السنة ايضاً تشبث لدى المقتدر بالله فأنشأ البيمارستان المقتدري وكان ينفق عليه من ماله كل شهر مائتي دينار . ودعا جميع المتطببين في بغداد الى الامتحان ولم يجز الا من ثبتت لديه مقدرته . وقد بلغ عددهم في جانبي بغداد ثمانمائة وستين طبيباً سوى من استغنى عن الفحص باشتهاره ومن كان في خدمة السلطان مما ينطق بانتظام الادارة الصحية في ذلك العهد ويدل على فرط اعتناء الامة بامر صحتها وحرمتها لهذا العلم الجليل من خصائص الحضارة الرفيعة .

وممن يجب الاحتفاء بهم ساعد بن بشر ابو منصور البغدادي الذي قلب فن المداواة القديم وخالف مسطور الأقدمين فدبر اكثر الامراض التي كانت تعالج بالأدوية الحارة بالتدبير المبرد . فهو اول من داوى السكتة الصدرية والدماغية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والاحتقانات وغيرها بالفصد والمبردات وكانوا قبله يداوونها بالوسائط والأدوية الحارة مما يسجل له بقلم الفخر .

ومنهم ابو الفرج ابن الطيب وكانت له مقدرة قوية على التصنيف ، وهو اول من صنف في الطب بصورة جداول عمومية . وامين الدولة بن التلميذ وكان رئيس الطب في بغداد وعهد اليه بامتحان الاطباء فيها . وله مؤلفات كثيرة في الطب منها اقرباذينه الذي عزل اقرباذين سابور بن سهل المنوه به سابقاً . ومنهم اسحق بن سليمان صاحب كتابي الحميات والبول نقلها قسطنطين الافريقي الى اللاتينية . ودرسا في سالرنة ثم في اوربا وكان لهما رواج عظيم . ومنهم ابن ابي أصيبعة صاحب طبقات الاطباء .

ومنهم اسحق بن عمران الذي أدخل الطب الى المغرب . وابن الجزار صاحب زاد المسافر وهو من أجل ما كتب في الطب نقله قسطنطين الافريقي الى اللاتينية وانتحله لنفسه باسم فياتيكوم ودرس في سالرنة ثم في جامعات اوربا . وابن جلجل الذي فسر اسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس . وأفصح عن مكنوناتها واوضح مستغلق مضمونها وهو صاحب كتاب ما فات ديسقوريدس من الادوية الحديثة التي كانت مجهولة عند الأقدمين ، وقد ترجم الى اللاتينية وكان له شأن في جامعات الطب في اوربا .

وابن وافد صاحب المذهب الطبي الخاص القائل بعدم التداوي بالأدوية ما أمكن التداوي بالأغذية او ما كان قريباً منها ، فاذا دعت الضرورة الى الأدوية فلا يرى التداوي بمركبها ماوصل الى التداوي بمفردها ، فان اضطر الى المركب منها لم يكثر التركيب بل يقتصر على أقل ما يمكنه منه وذلك خير ما وصل اليه الطب الحديث في العهد الاخير . و بالنظر لوفرة أمراض العيون نجب في هذا الفرع من الطب كثير من الاخصائيين به لاسيما في مصر . منهم عيسى بن علي الكحال صاحب تذكرة الكحالين وهي ثلاث مقالات الاولى في وصف العين والثانية في أمراض العين المحسوسة والثالثة في أمراض العين غير المحسوسة كقصر البصر وغيره .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اما علم النبـات فهو يسجل في أعلى صفحاته باحرف ذهبية ثلاثة أسماء عظام خلد التاريخ ذكرهم . اولهم رشيد الدين الصوري النباتي الكبير ، ولد في صور سنة ٥٧٣ ونشأ فيها وتولى رئاسة الطب في دمشق ايام الملك الناصر داوود بن الملك المعظم وكان له مجلس للطب حافل بالطلبة وله من الكتب كتاب الادوية المفردة ذكر فيـه أدوية كثيرة كانت مجهولة عند سلفه وكان يتوجه مستصحباً مصوراً ومعه الأصباغ والليق على اختلافها وتنوعها الى المواضع التي فيهـا النبات كلبنان وغيره ويحققه ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه واصوله ويصور بحسبها . وكان يصور النبـات الواحد إبان نباته وطراوته ويصوره ثانياً وقت كماله وظهور بذوره ثم يصوره وقت ذويه ويبسه مما لم يسبقه احد الى ذلك . وهذا الكتاب النفيس المفرد في بابه موجود اليوم في المكتبة الشاهية الخاصة في طهران . ثم جاء من بعده ابو العباس ابن رومية الاشبيلي وقد فقدت كتبه الاصلية . ثم ظهر تلميذه ابن البيطار ضياء الدين ابن احمد المالقي النباتي . أوحد زمانه وعلامة وقته في معرفة النبات وتحقيقه واختباره ومواضع نباته ونعت أسمائه على اختلافها وتنوعها . ولد في القرن الثالث عشر للميلاد في اشبيلية وسافر الى بلاد الروم ويونان والمغرب في طلب علم النبات ثم توطن مصر وكان مقرباً من الملك الكامل وولاه رئاسة العشابين واصحاب البسطات ولم يزل فيها حتى توفي عام ٦٤٦ وأشهر كتبه الجامع في الادوية المفردة صنفه للملك الصالح نجم الدين ايوب وقد استقصى فيه ذكر الأدوية المفردة وأسمائها وتحريرها وقواها ومنافعها وبين الصحيح منهـا وما وقع الاشتباه فيـه . وليس في الادوية المفردة كتاب أجل ولا أجود منه . وهو مرتب على الأحرف الهجائيـة يبحث في الأدوية النباتيـة والمعدنية والعضوية وفيه الف وثلاثمائة فصل منها ما يربو على ثلاثمائة فصل تبحث في مفردات طبية مجهولة عند الأقدمين ، ومنها الفوفل والكافور والزباد وحشيشة الملوك والقرنفل والعناب والمسك والمن والليمون البصري وجوز الهند وجوز التي والفلفل والراوند والصندل والسنا والسكر والتمرهندي الى آخر ما هنالك من الادوية المفردة التي أدخلتها العرب في الطب . وقد كان لهذا الكتاب في عواصم العالم منزلة عظمى ضؤلت أمامها مؤلفات ديقوريدس .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

و بالنظر لضيق الوقت استميح العفو من ذكر بقية اولئك الاساتذة الكثيرين عدم تعطير هذا المجلس بذكر اسمائهم ·

ومن وفرة عدد اولئك العلماء الاطباء تتجلى لنا عظمة تلك المملكة الشاسعة ومدنيتها وليت شعري هل ينبت العلم الا حيث يحرس السيف و يورف العدل وتشرق الحرية؟ ويتجسم للعيون ما كان فيه الطب في ذلك العهد من الرقي وما كانت عليه دواوين الصحة من الانتظام · فما من بلد الا وكان فيه مستشفيات متعددة ومدارس طب حافلة · وكان للأطباء نظام ورئيس وللصيادلة قانون ورقيب · وكان من الأطباء فريق خاص بالجند وآخر بالمستشفيات وطائفة بالسجون · ومنهم الخاص بالخلفاء والامراء المنقطع لمداواة العامة · والكل في سعة وغناء من العيش وكان الاختصاص والاخصاء في الطب شائعين كما في هذا العهد · فكنت ترى الطبيب والجراح والفاصد والكحال والمختص بالأمراض العقلية والعصبية كل يعمل في دائرة اختصاصه وكانت المستشفيات مؤلفة من غرف بعضها ماهو خاص بالامراض الداخلية وماهو خاص بالجراحة او بالنساء او بالعيون الخ ، وكانوا يسجلون مشاهداتهم وقد وصلنا منها تجارب المارستان للرازي · قال الدكتور غستاف لبون في حضارة العرب : ان مستشفيات العرب كانت من الوجهة الصحية أفضل من مستشفيات الاوربيين اليوم بسعتها وجمال موقعها ونظافتها وكثرة مياهها وانطلاق الهواء في أطرافها · وقال ايضاً ان أطباء العرب في القرن العاشر للميلاد لم يفقدوا من مرضاهم اكثر مما يفقده اطباؤنا الحاليون ·

ولم تكتف العرب بهذه الأعمال الاولية بل جنحوا الى التكامل مدفوعين بعامل الارتقاء الطبيعي فبنوا دوراً لتجريد المجذومين · واول من فعل ذلك الوليد الأموي سنة ثمان وثمانين · وأنشأ المنصور العباسي داراً للعميان والأيتام والقواعد من النساء ، كما هو حال دور العجزة في الممالك المتمدنة اليوم ، ودوراً لمعالجة المجانين وغيرها من دور الصحة والاسعاف العام التي تبكي عليها دمشق بل جزيرة العرب باجمعها في القرن العشرين · وكانوا يدعون مستشفياتهم باسماء مؤسسيها والمحسنين اليها فيقولون المستشفى العضدي نسبة الى عضد الدولة والمستشفى النوري نسبة الى نورالدين كما ان الغربيين اليوم ينسبون معاهدهم الصحية وغرف مستشفياتهم الى مؤسسيها او النابغين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

منهم فيقولون معمل پاستور وقاعة ديولافوا وغرفة لاينك الى غير ذلك مما يخلد في نفوس الأمة ذكر أعاظم رجالها و يبعث فيها روح النهضة والاقتداء بهم . و يا حبذا لو أتيح لدمشق بل لعامة الأمصار العربية التي الفت بنيها يخلدون على ظهرها اسم الغريب والأعجمي ان تشاهد يوماً غرف مستشفياتها تنسب الى أعاظم من نبغ في الطب عند العرب فيقال غرفة الرازي بدلاً من قاعة الداخلية وغرفة ابن سينا بدلاً من الغرفة الثانية وردهة ابن زهر بدلاً من ردهة الخارجية ودار ابي القاسم بدلاً من دار العمليات الجراحية الى غير ذلك من شعائر الأمم الحية المتمدنة .

ومن هذه الصورة المصغرة لذلك الهيكل العظيم يتضح لنا كل الوضوح ما أوردناه في صدر كلامنا من ان العرب لم يكونوا واسطة نقل صماء بين الأقدمين والمتأخرين، بل كانوا أمة عاملة حية ، غريقة في الأصل والعلم ذات تاريخ مجيد ومدنية رفيعة خاصة . يتجلى الإقدام الذاتي ، والإبداع الفكري ، والإعتماد على النفس ، في جميع علومهم وأعمالهم . أحيوا العلم اليوناني القديم باجهاد النفس وعرق الجبين ، وجمعوه كما يجمع الصائغ ذرات الذهب المبعثرة في التراب تحت الأقدام فيخلوه وسبكوه ، وأضافوا اليه خبرة معارف الهنديين والكلدان والفرس ، ثم صاغوا منه عقداً حلوه بجواهر من مبتكرات عقولهم ، ولما لم يفسح الاجل في حياتهم القصيرة تركوه لاوربا الغارقة اذ ذاك في ليل أليل من الجهل والهمجية . فتحلت به صدورها خمسمائة سنة دون ان تمد اليه يداً . الى ان قيض الله لها باستور وزملاءه في القرن الاخير فصاغوا من هذا العقد اكليلاً مرصعاً تتوج به رأس الطب المكشوف في جميع أنحاء العالم .

واذ كان لا يصدق القول حتى يشهد شاهد من اهله ، وكثير أولئك الشهود ، فلنصغ الى الدكتور غستاف لبون في كتابه حضارة العرب فهو يقول : « وسنحاول الآن اثبات تأثير الحضارة العربية في الغرب وان اوربا مدينة بتمدنها اليهم .... فاذا رجعنا الى القرن التاسع والعاشر من تاريخنا حينما كانت الحضارة الاسلامية في الاندلس تتلألأ باجمل الانوار نشاهد المراكز المتعلمة الوحيدة في اوربا منحصرة في بروج يقطنها سادة متوحشون يتباهون بجهلهم القراءة والكتابة .... وكانت الهمجية في اوربا متكاثفة بحيث كان يتعذر عليها معها ان تشعر بهمجيتها . واستمر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذلك حتى القرن الحادي عشر وبعبارة ثانية حتى الثاني عشر اذ لاحت فيه بارقة علم ضئيلة . ثم لما شعرت بعض العقول المستنيرة بالاحتياج المبرم الى تمزيق كفن الجهل الملتفة به اتجهت نحو العرب أساتذة العلم في ذلك العصر .

(الى ان يقول) ولا يتأتى لنا حتى القرن الخامس عشر ان نذكر مؤلفاً لم يكن ناسخاً عن العرب فان روجي باكون وليونار دي بيز وارمان دي فيلنوف وريموندلول والقديس توما والبيرتو الكبير والفونس العاشر دي كاستيل وغيرهم كانوا تلاميذ العرب او مقلديهم . وقد بقيت الكتب المترجمة عن العربية ولا سيما الطبية أساس التعليم في كل جامعات اوربا مدة خمسمائة او ستمائة سنة ، ولا يمكننا ان نقول ان التأثير العربي امتد حتى ايامنا الأخيرة فان كتب ابن سينا مازالت تدرس في جامعة مونبيلية الى خاتمة العصر الاخير » .

***

اتى القرن الثالث عشر فانقض المغول على بغداد فقوضوا ذلك العمران ومحوا تلك الحضارة ، وأغرقوا في دجلة ثمار تلك العقول حتى اخضلت حزناً عليها ، فباتت تلك الرياض العلمية الزاهرة قاعاً صفصفاً خاوية على عروشها . ثم قامت الحروب الصليبية في الشام فاستحالت تلك الثورة العلمية المدنية الى تقهقر عام وحرب ضروس همجية .

وانقدت الفتن والحروب في صقلية والاندلس فأحرقت بنيرانها تلك الحضارة الزاهرة والمكاتب العامرة والسلطنة العظيمة الباهرة . فباتت تلك الممالك العظيمة الشاسعة مظلمة بعد النور ، خاوية بعد العمران ، مجدبة بعد الخصب ، ينعق في أرجائها غراب الجهل ، و ينعب في أطلالها بوم النحس والهوان .

الى ان جاءت السنة العشرون من القرن العشرين فلاح لعين التائه المتأمل في دمشق على أطلال البرامكة العظام شبح كوخ حقير ، تقصف من حوله الرياح وتتساقط من فوقه الصواعق ، أشبه به ببيت شعر صغير ، رفع على أنقاض ذلك البرج الهائل ، يدعى : المعهد الطبي العربي . فانتعش التائه واستبشر . ثم وجف . ثم تلهف .... فليت شعري هل تسمح الايام وتغمض عين الدهر حيناً من الزمن فتسكن تلك العواصف وتهدأ تلك الرياح فينمو ذاك البناء ويصبح جامعة عربية كبرى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يحيي ذكرى اولئك الرجال العظام فننعش في السماء أرواحهم ، وننبعث من التراب أجسامهم ، عمل عظيم يحققه السعي والدؤوب ، والله المستعان .

عضو المجمع العلمي

الدكتور اسعد الحكيم